نظرية الشكل والمعنى
في
النحو العربي

لعلي غير مفرط في استعارة مصطلح «نظرية» في الكشف عن أشكال نحوية عربية قديمة، وأريد بـ «النظرية» النمط النحوي الذي استقر عليه الـمعربون القدماء في العربية الفصيحة. وقد يكون شيء من هذا «النمط» مما لم يعرض له النحاة الأقدمون.

وليس «الشكل» ما ألفه أهل الدرس في النقد الحديث مما يقابل شيئاً أسموه «الـمضمون»[1]، ولكنه شيء قد بدا لي أن أتخذه مصطلحاً جديدا، فالنظر إلى «الشكل» الذي أسميته «نظرية»، يقابل النظر إلى «المعنى» كما سأبسطه في هذا الـمبحث.

وسوف أتخذ من لغة «التنزيل» العزيز مادة هذا البحث استقريه فأقف علي أنماط عدة من هذا الذي يحزبني من هذا العلم القديم. ولا أراني متنكرا للنحاة الأقدمين فيما ذهبوا اليه، ولكني سأنبه الدارسين إلى تفسير جديد يتخذ من الدرس النحوي شيئاً من علم أوسع منه هو العلم اللغوي الذي يشغل منه الجانب النحوي وجهاً من وجوهه.

وسيكون من منهجي الاستقرائي للآي الشريف منهجا معجميا اذكر المواد فأسلكها في نظام حروف الـمعجم. ولكني سأبدأ ببسط مسألة من الـمسائل لأقف الدارسين علي ما أرمي إليه من «نظرية الشكل» فأقول: عرف الدارسون للنحو القديم وغيرهم من الذين اقتصروا علي النحو المدرسي، مادة في «التوابع» هي النعت السببي كقولهم: «مررت بزيد الشقي أبوه». فالشقي نعت سببي وهو يصف موصوفاً له علاقة بالـمتبوع، ولكنه يتبع في «إعرابه» الـمتبوع السابق له، ومن أجل ذلك سمي النعت السببي، وهو يقابل النعت الحقيقي وهو الذي يصف المتبوع وليس غيره.

أقول: وموطن الإشكال في هذه الـمقولة النحوية ما فيها من نقض للإسناد الذي تقوم عليه الفلسفة النحوية، وذلك ان «الشقي» في الجملة الـمذكورة «مسند» وأن «أبوه» الـمسند إليه، وعلي هذا كيف يكون «الشقي» في إعرابه تابعاً للمتبوع وهو «زيد»؟ فهل

(١) أراد هؤلاء النقاد في عصرنا بالشكل والـمضمون ما أراده النقاد الفرنسيون بـ «La Forme» Le Contenu.

نقول: إن «الجر» في كملة «الشقي» خطأ، وصوابه أن يضبط بالضم علي الرفع، لا لن نقول هذا لأن المعربين قد درجوا علي الجر وكلامهم حق، وما ينطلق به الـمعربون هو اللغة، وينبغي للنحاة أن يلمحوا تفسيراً اخر فيعملوا اجتهاهم في ذلك.

ولو أنهم اجتهدوا علي غير ماذهبوا إليه من موضوع «السببي» لأدركوا أن حكاية هذه المسألة كحكاية اللغويين في النظر إلى قول القدماء «جحر ضبّ خرب»، فقد قالوا في جر «خرِب» أن ذلك للمجاورة. أقول: ربما كان قولهم بـ «المجاورة» هو ما يدخل في «الشكل»، وأعني أن الـمعرب يستحسن أن يشاكل بين «خرب» والاسم السابق وهو «ضب» فليست «المجاورة» التي قال بها اللغويون إلا «الـمشاكلة» وهي ما دعوته بـ «النظر الي الشكل».

وهذا «النظر الي الشكل» هو الذي دفع أبا جعفر يزيد بن القعقاع أن يقرأ «سلاسلا وأغلالا وسعيرا»[1]، خلافا لجمهور القراء، فقد دفعته «المشاكلة» والحفاظ علي «الشكل» أن ينون «سلاسلا» في حين ذهب جمهور القراء إلي منع التنوين وهو الأصل.

هذان نموذجان روعي فيهما «الشكل» وعلي هذا أيحق لنا أن نقول في جر «الشقي» من قولنا: «مررت بزيد الشقي أبوه» أن مراعاة الشكل اهتدي إليها الـمعربون فانطلقوا بها علي أنها شيء من ملاك هذه اللغة؟

وبعد فهل لي أن أقول بهذا «النظر إلى الشكل» فأجري عليه قوله تعالي ﴿ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾[2] وهو القول بـ «الجوار» واحتساب الجر للمشاكلة ابتعاد عن القول بالسببي الذي بسطنا فيه القول. ومثله قوله تعالي ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها﴾[3]، وكذلك قوله ـ جل وعز ـ : ﴿ ثم يخرج به زرعا مختلفاألوانه﴾[4].

وقد ينبري غير واحد من الدارسين فيرد علي مقولتي في إجراء هذا النمط من فن القول علي مراعاة الشكل متمسكا بما قال به النحاة الأوائل وهو «النعت السببي».

وما أريد أن أفسد على هذا الذي يتصدي رادا عليّ بقولي: إن القول بـ «المشاكلة» بسبب

(١) ٤ سورة الانسان.

(٢) ٧٥ سورة النساء.

(٣) ٢٧ سورة فاطر.

(٤) ٢١ سورة الزمر.

لجوار يصرفنا عن افتعال شيء يقوم علي أساس فاسد، وهو إذا كان النعت لـمنعوت معروف فكيف يكون إعرابه مبطلا لهذه العلاقة النحوية؟ والـمشاكلة شيء درجت عليه العربية في مواضع كثيرة كما سنرى.

ولنعرض للمواد التي جاءت في لغة التنزيل مرتبة على حروف الـمعجم:

١ـ أمـة:

جاءت كلمة «أمة» في اثنتين وخمسين آية، وهي اسم جمع، وهي مؤنثة وقد وردت موصوفة بصفة مؤنثة نحو قوله تعالي: ﴿كان الناس أمة واحدة﴾[١].

وفي وصف «الأمة» بـ «واحدة» مراعاة للفظ وهي أن المطابقة بين الـمؤنث موصوفا والـمؤنث صفة. وجاء قوله تعالي: ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت....﴾[٢].

وفي هذه الآية مراعاة للفظ واجبة تتحقق في مجئ الفعل بعد «أمة» ويؤكد هذه الـمراعاة كذلك الضمير في «لها» واسم الإشارة الـمؤنث «تلك». وهذه الـمراعاة لجانب اللفظ هي ما دعوته «النظر الى الشكل» أو «نظرية الشكل»، وليس من ضير أن تدخل «الـمشاكلة» في هذا. وقد وصفت «أمة» بصفة لا يتحقق حملها على جنس معين مذكراً كان أم مؤنثاً وهو كلمة «وسط» كما في قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا..﴾[٣].

ونقرأ قوله تعالي ﴿ولتكن منكم أمة يدعون الي الخير...﴾[٤] فنجد الفعل الأول يشير إلى الفاعل المؤنث وهو «أمة»، والفعل مبدوء بتاء الـمضارعة، وليست هذه التاء إلا علامة تطابق بين الفعل والفاعل، وفي هذا نظر الي الشكل يبدو في المطابقة. ويلي الفاعل فعل مسند إلى ضمير الجمع الـمذكر وهو الواو في «يدعون» وهذا يعني أن الـمطابقة زالت، وأن مجئ الفعل على ما جاء عليه يشير إلى مراعاة المعني، وهو النظر إلى الـمعني، والأمة جماعة من الناس غلب عليها التذكير. وعلى هذا جاءت مراعاة للمعني كما جاءت مراعاة للفظ، وإن لـمحنا ان مراعاة اللفظ اكثر ورودا في العربية، كما استقرينا هذه الخلاصة في عدة الآيات التي جاءت فيها «أمة».

(١) ٢١٣ سورة البقرة.
(٢) ١٤١ سورة البقرة.
(٣) ١٤٣ سورة البقرة.
(٤) ١٠٤ سورة آل عمران.

وقد روعي التأنيث في «أمة» ولو فصل بينها وبين الفعل فاصل هو مذكر في لفظه، وهو الفاعل في ترتيب الجملة لقوله تعالي: ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل﴾[1]، إن الفاعل للفعل «همت» هو «كل» وهو كلمة مفردة مذكرة باحتساب اللفظ، جمع في المعني، وقد روعي الشكل في هذا البناء النحوي، كما روعي المعنى في الاسم والفعل الذي ولي «أمة»، وهذا كله من «بديع» لغة التنزيل.

ومن المفيد أن نختم الكلام علي هذه المراعاة وتواترها بين الشكل والمعنى بقوله تعالى: ﴿وأن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم﴾[2].

وفي هذه الآية مراعاة للمعنى بسبب ما ورد من الفعل الأول الذي جاء فيه الخطاب للذكور عامة فلما جئ في حشو الآية بكلمة «أمم» طابقتها في مراعاة المعني.

٢- بشر:

وردت كلمة «بشر»[3] في سبع وثلاثين آية وها أنا أعرض لتفصيل ذلك:

جاءت في قوله تعالي: ﴿قالت رب اني يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾[4]. أقول: ولابد أن نعرض لدلالة «بشر» ليتأتي لنا أن نقول في «مراعاتها» والنظر اليها. وهي في هذه الآية تعني «الرجل»، وهي علي هذا مفرد مذكر، وكذلك جاءت مراعاة للمعني.

وجاءت في قوله تعالي: ﴿بل أنتم بشر ممَن خلق يغفر لمن يشاء....﴾[5]، وهي هنا جمع مذكر بدلالة الضمير أنتم.

---

(١) ٥ سورة غافر.

(٢) ١٨ سورة العنكبوت.

(٣) الذي أراده في معني «بشر» انها ذات صلة أكيدة بكلمة «البشرة» وهي ظاهر جلد الانسان، وقد بدا لي أنها تدل علي الناس مفردا أو جمعا لأنهم «هالكون فانون» بالقياس الي الخالد الدائم الباقي وهو الله، وأنت حين تقرأ قوله تعالي ﴿قل انما أنا بشر مثلكم يوحي الي انما إلهكم إله واحد﴾ (١١٠ سورة العنكبوت)، وكقوله تعالي: ﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا﴾ وهذا يتحقق دلالة في آيات أخري تلمح هذه الدلالة التي أشرت اليها مما يومئ اليها سياق الآيتين.

(٤) ٤٧ سورة آل عمران.

(٥) ١٨ سورة المائدة.

ان كلمة «بشر» نظير كثير من الكلم في العربية لا يترشح منها جنس بعينه، فهي تارة مذكر مفرد، وأخري مؤنث، ثم جمع بنوعيه وقد وجدنا شيئاً من هذا.

٣- بعض:

الكلام على «بعض» مفيد، فقد قال فيها الـمعنيون باللغة التاريخية الشيء الكثير، فمنهم من قصر دلالتها على الواحد، وفي هذا مراعاة للشكل، ذلك أن لفظ «بعض» هو الإفراد والتذكير. ومنهم من صرفها إلى الجمع، وكأن هؤلاء يلمحون فيها ما يلمحون في «بضع» ودلالتها علي ما بين الثلاثة إلى العشرة. والذي أراه أن «بعض» تدل على الواحد كما تدل على الجمع وفي كليهما شواهد، ولنبدأ بالشواهد غير ما ورد منها في لغة التنزيل ثم نختم هذا الاستقرار بالنظر في لغة التنزيل فنقول:

ونستدل علي دلالة «بعض» علي الواحد في قول لبيد:

تراك أمكنة اذا لم أرضَها ... أو يرتبطْ بعضَ النفوس حمامُها

وفي قول زهير:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ... ـضُ القوم يخلُق ثمَ لا يفري

وفي قول بشار:

يا قوم أذني لبعض الحيِّ عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وفي قول أبي دلامة[1]:

أُقادُ الي السجون بغير ذنبٍ ... كأني بعضُ عمّال الخَرَاج

دلالة « بعض » على الواحد مع التكرار:

وتدل «بعض» على الواحد مع تكرارها، ومن ذلك ما جاء في «الكامل» للمبرد، وهو يشرح في قول الرسول صلي الله عليه وسلم: «لو تكاشفتم ماتدافنتم»، قال الـمبرد: «يقول لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييعه ودفنه»[2].

---

(١) العقد الفريد ١ :٢٦١.

(٢) الكامل للمبرد ٢٥٩/١.

دلالة «بعض» على الجمع من غير تكرار:

وتدل «بعض» على الجمع من غير تكرار، كثيرا، وذلك كما في قول المرقَش الأصغر[1]:

شَهِدتُ به عن غارة مُسْبطرَة يُطاعِن بعضَ القوم والبعض طوّحوا

وفي قول عبد الله بن رواحة[2]:

ولو سألتَ أو استنصرتَ بعضهم في جُلَ أمرك ما آوَوا وما نَصَروا

وجاء في «نهج البلاغة» أن الإمام عليّا ـ عليه السلام ـ قال: «.... حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة»[3].

وقال جرير[4]:

ألا ليت أن الظاعنين بذي الغَضَا أقاموا وبعض الآخرين تحمّلوا

وقال الفرَاء: «وبعض بني أسد وقضاعة ينصبون «غيْراً» اذا كان في معنى «الا»[5].

وجاء في «البيان والتبيين» للجاحظ: «وقال حين مرّ ببعض القوم فشتموه»[6].

وقد استوفينا من الشواهد ما يثبت أن «بعض» دلّت علي الجمع من غير تكرار في الشعر والنثر في عصور مختلفة.

واذا كانت «بعض» قد دلت علي الواحد والجمع فهي دالة على المثنى أيضاً، فقد جاء في قول أبي العباس أحمد بن يحيي المعروف بـ «ثعلب»: «..... لأن بعض الأصابع يكون أصبعا وأصبعين وأصابع»[7].

وقد قلت في أول الكلام علي «بعض»: انها توميء إلى «بضع» وكلاهما يدل على شيء من شيء، وان غلب على «بضع» أنها دون العشرة كما قالوا.

(١) جمهرة أشعار العرب ص٢٠١ (ط. صادر).
(٢) طبقات الشعراء (الأوروبية) ص ٨٨.
(٣) نهج البلاغة ٢٥١/٢ (ط. البابي الحلبي).
(٤) ديوان جرير ص ٢٥٥ (ط. الصاوي).
(٥) مختار الصحاح للرازي (غير).
(٦) البيان والتبيين (ط. السندوبي) ٩٤/٢.
(٧) لسان العرب (ب ع ض).

وفي قول ابن أبي مقبل[1]:

لولا الحياءُ ولولا الدين عبتُكما ببعض ما فيكما اذ عبْتَمـا عَـورَي

والمراد: لعبتكما ببعض ما فيكما ولم أتجاوزه إلى غيره.

ولنعد لاستقراء «بعض» في لغة التنزيل فنقول: انها جاءت للدلالة علي الواحد كقوله تعالي: ﴿ولو أنزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه﴾[2] والدلالة على الواحد معني واضحة بدليل الفعل اللاحق «فقرأه»، وفي هذا فائدة لغوية نحوية أخرى هي النظر إلى الشكل، «والشكل» هنا هو اللفظ، وليس «الـمعني» الذي هو افادة الجمع. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به.....﴾[3].

وقد يحمل «بعض» على الواحد دلالة معنوية، فيكون في ذلك مراعاة للشكل، وهو اللفظ المذكر الواحد، ولكنه على الرجحان لا القطع كما في قوله تعالى: ﴿وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيّارة﴾[4] وبعض السيارة أحدهم استرجاحا.

والكثير في «بعض» في كلام الله جل وعز دال على الجمع استرجاحا، وفي ذلك يتحقق النظر الي الـمعنى، كقوله تعالى: ﴿ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[5]، وإذا كنت استرجح دلالة الجمع ففي دلالتها على الواحد قبول، و «بعض الآلهة «قد يكون جمعا، وقد يكون واحدا، وفي كليهما ضرب من النظر يقوم اما على مراعاة الشكل أي اللفظ، وإما على مراعاة «الـمعنى وهو الجمع.

قلت: ان دلالة بعض على الجمع كثير، وهذا يتحقق في تكرارها كقوله تعالى:

ـ ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو...﴾[6].

ـ ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض...﴾[7].

(١) الـمصدر السابق.
(٢) ١٩٨ سورة الشعراء.
(٣) ٦٦ سورة التحريم.
(٤) ١٠ سورة يوسف.
(٥) ٥٤ سورة هود.
(٦) ٣٦ سورة البقرة.
(٧) ٢٥٣ سورة البقرة.

ـ ﴿وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم﴾[1].

ودلالة الجمع تتحقق من المعنى، وقد تأتى مستفادة من قرينة دالة كقوله تعالى: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾[2].

وقوله تعالي: ﴿وأقبل بعضهم علي بعض يتساءلون﴾[3].

وقد تأتي «بعض» مكررة دالة على الواحد استرجاحا نحو قوله تعالى: ﴿وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض﴾[4].

﴿خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق﴾[5].

وجملة هذه الآيات تكشف عن أن «بعض» مفرد في لفظه فروعي هذا في آيات، جمع في معناه فروعي هذا أيضا في آيات أخري. وقد كنا وصلنا إلى شيء من هذا في جملة من الشعر والنثر.

٤ـ جبل:

و«الجبال» جمع جبل، وقد روعيت في بناء الجملة القرآنية على أنها مؤنث، ولكن هذا المؤنث مع صفته الدلالية علي الجمع كان له مع الفعل نمط خاص، فهو فعل لحقته تاء التأنيث التى تلحق الفعل إذا كان الفاعل مؤنثاً مفرداً ومثله «نائب الفاعل» كقوله تعالى:

﴿ولو أن قرآنا سيّرت به الجبال....﴾[6].

ومثل ذلك إذا ابتديء بها فجاء الفعل بعدها واقترنت به تاء التأنيث كقوله تعالى: ﴿وإذا الجبال نسفت﴾[7].

وهذه نظير قوله تعالى: ﴿يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا﴾[8].

(١) ٥٣ سورة الأنعام.
(٢) ٧٣ سورة الأنفال.
(٣) ٢٧ سورة الصافات.
(٤) ٢٤ سورة ص.
(٥) ٢٢ سورة ص.
(٦) ٣١ سورة الرعد.
(٧) سورة المرسلات.
(٨) ١٠ سورة الطور.

ومعاملة «الجبال» وهي جمع مؤنث معاملة الـمفرد يتضح في قوله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوِّبي معه والطير﴾[1].

ويتبين هذا أيضاً في عود الضمير الـمؤنث الـمفرد على «الجبال» وهي جمع كقوله تعالي: ﴿ويسئولنك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا﴾[2].

غير أننا نجد «الجبال» وقد روعيت جمعا مؤنثا بدلالة الفعل بعدها مسندا إلى نون النسوة كما في قوله تعالى: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾[3]، وقد وصفت الجبال بالصفة مفردة مؤنثة نحو قوله تعالى: ﴿وتري الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُ مرَ السحاب﴾[4].

وجملة هذا الذي بسطناه من الآيات الكريمة يشير الي أن الجمع مؤنث، واذا كان مؤنثا فقد يراعي مراعاة الـمؤنث بحسب اللفظ، ويراعى الـمعنى فيثبت له الجمع، وهذا قليل.

٥- جمـل:

وقد جاء في لغة التنزيل «جمالة» وهي اسم جمع لـ «جمل» كالصحب والصحابة ونحو هذا، وذلك في قوله تعالى: ﴿انها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالة صفر﴾[5].

واسم الجمع في العربية يراعي فيه ما يراعي في الـمفرد مذكراً أو مؤنثاً فالغالب في «الركب» الأفراد والتذكير كالوفد، والخصم، والنوم ونحوه، ومثله اسم الجنس الجمعي كالشجر والتمر ونحوهما مما كان مفرده بالتاء التى تشير إلى الواحدة من الجنس وهي: شجرة وتمر...

غير أن «جمالة» قد وصفت بالجمع المؤنث وهو «صُفر» جمع أصفر أو صفراء.

---

(١) ١٠ سورة سبأ.

(٢) ١٠٥ سورة طه.

(٣) ١٨ سورة ص. ولعل إسناد الفعل إلى النون يعود إلى أن «الجبال» استعير لها ما يكون للعاقل وهو «التسبيح».

(٤) ٨٨ سورة النمل.

(٥) ٣٣ سورة المرسلات.

وفي هذا نظر إلى معنى الجمعية دون «الشكل» وهو لفظ الـمفرد الـمؤنث[١].

٦ـ رحـم:

ونعرض في هذا الأصل إلى «رحمة» وهي اسم مؤنث في قوله تعالي: ﴿أن رحمة الله قريب من الـمحسنين﴾[٢].

في هذه الآية وصفت «الرحمة» وهي اسم مؤنث حقيقي بـ «قريب» على جهة الاسناد لا الوصف. وقد اكتفى النحاة بقوله: ان ما جاء علي «فعيل» هو مما يستوي فيه المذكر والـمؤنث. وحملوا على هذا بناء فعول نحو عجوز. وقالوا أيضاً إن «فعيل» الذي يستوي فيه الـمذكر والـمؤنث لابد أن يكون بمعنى مفعول، وهذا غير صحيح وذلك لأن «قريب» ليس بمعني مفعول بل بمعني فاعل. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿والـملائكة بعد ذلك ظهير﴾[٣]، وليس بعيداً عن هذا قوله تعالي: ﴿وكأيّن من نبي قاتل معه ربِّيون كثير﴾[٤].

وفي هذه الآيات انعدمت الـمطابقة بين الصفة والـموصوف، والسند والـمسند إليه، وليس لي أن أقول في هذه الـمسألة ما قلته من مراعاة الشكل أو مراعاة الـمعنى. وعلى هذا ليس لنا إلا أن نقول شيئاً آخر يتصل بتاريخ العربية وتطورها. إن «ظهير» و «كثير» مفردان مذكران فكيف جاء مجيئهما على النحو الذي ورد في الآيتين؟ إن «ظهير» وهو مفرد مذكر جاء خبراً للملائكة وهي جمع مؤنث، و «ربيّون» جمع مذكر، و«كثير» الصفة مفرد مذكر.

قد يكون لي أن أقول: إن التأنيث حادث في العربية، وإن الـمذكر هو القديم، ومن أجل ذلك وصلوا إلى الـمؤنث بزيادة علامة هي «الهاء» أو غيرها. وكان ورود «قريب» و «ظهير»، وكان ينبغي أن يكونا قريبة وظهيرة، يشعرنا أن هاتين الكلمتين بقية لم يصل اليهما شيء من

(١) وقد قرئت «جمالة» هذه «جمالات» بمطل الفتحة وكأنها تحولت لفظا الي شيء من الجمع بالألف والتاء، وليس منه في الحقيقة، لأن الـمفرد «جمل» لا يكون «جمالات» في الجمع، وعلي هذا تكون «جمالات» في هذه القراءة اسم جمع مثل «الجمالة» ومطل الحركة لا يؤدي إلى الجمع الـمؤنث بالألف للافتقار الي الـمفرد (انظر الكشاف للزمخشري في الكلام علي هذه الآية).

(٢) ٥٦ سورة الأعراف.

(٣) ٤ سورة التحريم.

(٤) ١٤٦ سورة آل عمران.

لعلامة التي تميزهما وتخصهما بالتأنيث. ومثل هذا ما جاء في كلمة «زوج» وما ورد على «فعول» نحو عروس وعجوز ونحوهما، وليس لنا أن نقول مقالة أهل اللغة الأوائل: أن هذه المواد مما يستوي فيه المذكر والمؤنث. وسبيلنا في هذه ما قلناه في «قريب» و «ظهير»، وأنها بقية قليلة من الأبنية العربية التي لم يلحقوها بالعلامة الحادثة المميزة.

والذي يقوي هذا النظر لديَ هو أن هذه المواد وردت في العربية القديمة مجردة عن علامة التأنيث وأنها وردت للمؤنث والمذكر ومن ذلك ما جاء في لغة التنزيل كقوله تعالي: ﴿وقلنا يا ادم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾[1] ومن المفيد أن أقول: إن «الزوج» للرجل لم يرد في لغة التنزيل، ولكنه معروف في العربية.

غير أن العربية بعد أن فارقت عصر القرآن قد جدّ فيها شيء اقتضاه تحول الزمن الذي يقضي بالتمييز بين المذكر والمؤنث دفعاً للبس، ولأن الحياة الجديدة بعد تلك الحقبة كان فيها من العلم بحقوق المرأة «الزوج» وما يكون لها في الإرث والزواج والطلاق أشياء تجعلها مختلفة عن الرجل «الزوج» في حقوقه وماله في الحياة الإسلامية، فكان ضرورياً أن يصار إلى التمييز بين «زوج» و «زوج» فجدّت كلمة «زوجة» للمؤنث.

لقد جاءت «زوجة» في شعر الفرزدق في قوله:

وأن الذي يسعي ليفسد زوجتي ... كساع إلى أسد الشَرَي يستبيلَها

كما جاءت في شعر ذي الرّمة:

أذو زوجة بالمصر أم ذو خَصومةٍ ... أراك لها بالبصرة اليومَ ثاويا

وليس عجبا إذاً أن نرى المتنبي يقول:

لك اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبها ... قتيلة شَوقٍ غير مُلحقها وَصْمَا

و«القتيل» علي «فعيل» مما يستوي فيه المذكر والمؤنث.

ومن الدليل علي أن التأنيث حادث وليس أصيلاً أصالة التذكير ما ورد من النعوت الخاصة بالمرأة التي عريت عن علامة التأنيث لأنها خاصة بالمؤنث وليس من لبس يقتضي علامة مميزة نحو: طالق، وناشز، وحامل، ومرضع، وغير هذا كثير.

---

(١) ٣٥ سورة البقرة.

ومن الدليل على أن التأنيث حادث وليس بأصيل أيضاً ميل العربية إلى الابتعاد عن الـمؤنث بجعل الفعل يَعْرَى مما يشير إلى الـمؤنث الفاعل كما في قوله تعالي: ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم﴾[1].

وأدل من هذا قوله تعالى: ﴿وقال نسوة في الـمدينة﴾[2]، إن الفعل في الآية قد عري عما يشير إلى أن الفاعل مؤنث وهو «خزنتها» بسبب الفاصل «لهم» وكان الفاصل سوغ الرجوع إلى الأصل وهو التذكير صاحب الأصالة في العربية. والفعل «قال» في الآية الثانية قد عري مما يشير إلى أن الفاعل مؤنث حقيقي جريا مع العربية التي تنظر إلى الأصل، وهو عدم وجود العلامة الـمميزة للمؤنث.

ولعلي ألحق بهذا ما ورد من مجيء الصفة مذكرة والـموصوف مؤنث كقوله تعالى: ﴿خشعا أبصارهم﴾[3]، إن «خشعا» جمع خاشع مثل ساجد وسجَد وعودها إلى الابصار علي طريق النعت السببي يوميء إلى إغفال الـمؤنث واحتساب التذكير وهو الأصل، في حين وصفت «الأبصار» بـ «خاشعة» وهي مؤنثة جريا على ما انتهت إليه اللغة في تطورها في قوله تعالى: ﴿خاشعة أبصارهم﴾[4].

وجاءت مراعاة المعني في كثير من الكلم الذي قد يعني الكثرة كما رأينا في «بعض» وكما هو الحاصل في «كل» و «جميع» كما سنري، ولكنها تجاوزت هذا الحد إلى ما هو أقرب إلى الجمع مما له مفرد من لفظه[5] أو غيره. ومن هذا الضرب الأخير «ذباب» فقد روعي إفراده وتذكيره، وإن كان منه «ذبابة» كسائر أسماء الجمع وأسماء الجنس نحو شجر

---

(١) ٧٣ سورة الزمر.

(٢) ٣٠ سورة يوسف.

(٣) ٧ سورة القمر.

(٤) ٤٣ سورة القلم.

(٥) قلت: مما له مفرد من لفظه، وأريد أن أقول: إن «ذباب» ومثله كثير هو الأصل الذي ولد منه الـمفرد «ذبابة» بالتاء، وهذا يعني ان الـمفرد حادث وذلك لأن الأصل الدال علي فكرة الجمع قد يشيع في الكلام فيميل الـمعربون إلى الأخذ منه مفرداً علي حدة، ألا تري أن «الأسطورة» مثلا جاءت من «الأساطير» التي هي جمع الجمع لـ «سطر»، وقد أخذ منها الـمفرد بعد انصراف دلالتها من الكتابة التي هي جمع الجمع لـ «سطر»، وقد أخذ منها الـمفرد بعد انصراف دلالتها من الكتابة التي هي «سطور» إلى الحكاية ذات الصبغة الخرافية، ومثل هذا كثير في العربية.

وشجرة وتمر وتمرة، قال تعالى: ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا تستنقذوه منه﴾[1]. وقد يلحق بهذا مما لم يأت منه مفرد كما في «ذرية» فقد وصفت وهي اسم مؤنث بصفة مجموعة جمعا مذكرا كقوله تعالى: ﴿ولهم ذرية ضعفاء﴾[2] وهذا يعني أن مراعاة المعني غلب في الوصف، ذلك ان «الذرية» وهي لفظ مؤنث تشتمل على الذكور والاناث، والتغليب للذكورة. ولكن مراعاة اللفظ والنظر إلى «الشكل» تحقق في هذه الكلمة من قوله تعالى: ﴿... قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة﴾[3]، فقد وصفت بصفة مفردة مؤنثة حملا على لفظها أي شكلها. كما جاء الضمير العائد عليها مفرداً مؤنثا في قوله تعالى: ﴿..... ذرية بعضها من بعض﴾[4].

٧- رسل:

قال اللغويون المتقدمون: أن الجمع في العربية مؤنث علي الغلبة التي يستبعد منها جمع المذكر السالم[5]، وقد كانت النصوص مؤيدة كثيراً هذا الذي ذهبوا إليه، ولنعرض كلمة «رسل» في لغة التنزيل لنقف كيف كان مكانها في الجملة القرآنية. ولابد من القول إن «الرسل» جمع «رسول»، وعلى هذا فالتذكير أصيل فيها إفرادا ودلالة معنوية.

جاء في قوله تعالي: ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين.....﴾[6] وقوله تعالى: ﴿..... يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾[8].

---

(١) ٧٣ سورة الحج.

(٢) ٢٦٦ سورة البقرة.

(٣) ٣٨ سورة آل عمران.

(٤) ٣٤ سورة آل عمران.

(٥) قلت إن الجمع مؤنث غالبا استبعد منه جمع المذكر السالم، ومن المفيد أن أشير الى أن ما ألحق بهذا الجمع قد اتبع فيه هذا المشهور من تأنيث الجمع نحو، سنون وأهلون ومئون ونحو ذلك، ولعهل من المفيد أن أشير إلى «بنون» فقد روعي فيها التأنيث مع دلالتها المعنوية في أنها جمع لـ «ابن» فقد جاء في قوله تعالى: ﴿لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل﴾. وقد يقال هذا في أن «بنو اسرائيل» تعني «أمة» فهي مؤنثة في المعني.

(٦) ١٦٥ سورة النساء.

(٧) ١٠٩ سورة المائدة.

(٨) ١٣٠ سورة الأنعام.

وقد روعي التذكير بالوصف المجموع وبالضمير الجمع المذكر العائد على «الرسل». غير اننا نجد النظر إلى الشكل واللفظ ما يتحقق في التأنيث الذي نجده في الفعل وغيره كما في قوله تعالى: ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾[1]، ﴿واذا الرسل اقتت﴾[2].

٨- ريح:

جاءت كلمة «الرياح» في لغة التنزيل، وهي جمع، وقد نظر فيها إلى التأنيث فوصفت بالجمع المؤنث كما في قوله تعالى: ﴿وأرسلنا الرياح لواقح.....﴾[3]، و﴿من آياته أن يرسل الرياح مبشرات....﴾[4]. وقد يتقدمها الفعل وهو يشير إلى تأنيثها كما في قوله تعالى: ﴿.....فأصح هشيما تذروه الرياح﴾[5].

٩- زوج :

ويأتي الجمع «أزواج» في لغة التنزيل فيدل على أنه جمع لـ «زوج» وهي زوج الرجل، كما يأتي جمعا لـ «زوج» للأنعام وغيرها مما تنبت الأرض من الشجر والنبات.

أما «الأزواج» في دلالتها على جمع «زوج» للرجل فقد جاءت موصوفة بصفة مؤنثة مفردة، وفي التأنيث مراعاة للحقيقة، ولكن الأفراد شيء جرت عليه العربية في وصف الجمع ما عدا جمع المذكر السالم[6]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾[7].

---

(١) ٥٣ سورة الأعراف.

(٢) ١١ سورة المرسلات.

(٣) ٢٢ سورة الحجر.

(٤) ٤٦ سورة الروم.

(٥) ٤٥ سورة الكهف.

(٦) يوصف جمع المذكر السالم بصفة جمع مذكر فيقال المسلمون المؤمنون، والزيدون الأفضلون، والمهندسون العلماء. ولكن الجموع الأخري وهي جموع التكسير فليس من ضابط فيما يأتي بعدها من وصف فقد يكون مفرداً مؤنثاً، وقد يكون جمعا مؤنثا حقيقة أو ما يحمل على التأنيث، وأما جمع المؤنث السالم فيوصف بالجمع المؤنث، وقد يأتي الوصف مفرداً فيقال: صحائف بيض، وليس بيضاء كما هو الشائع في عصرنا. أما ما يتبع الجمع من اسم الجمع واسم الجنس فليس من ضابط فيه فقد ينظر إلى لفظه فيكون مفرداً مؤنثاً أو مذكراً، وقد ينظر إلى معناه فيلحق بالجمع فيوصف بالمفرد المؤنث أو الجمع المؤنث، وفي الذي عرضناه كفاية.

(٧) ٢٥ سورة البقرة.

كما ورد الضمير العائد على «أزواج» مفرداً مؤنثاً وذلك في قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها﴾[1].

غير أننا نجد «الأزواج» وقد روعي فيها التأنيث والجمع فعاد عليها «النون» ضمير النسوة المؤنث كما في قوله تعالي: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾[2]. وفي قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي أتيت أجورهن﴾[3].

١٠- سحب:

لقد ورد «السحاب» في جملة من الآي الكريم وهو في بعضها مفرد مذكر بدلالة الوصف، وهذا يأتي من مراعاة اللفظ أو الشكل، فاللفظ مذكر، وكما في قوله تعالي: ﴿وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم﴾[4]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿....والسحاب المسخر بين السماء والأرض..﴾[5].

وقد يأتي بعده ضمير مفرد مذكر يعود عليه نحو قوله تعالى: ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء﴾[6].

ولكنك تجد «السحاب» في آيتين قد وصف صفة مجموعة تخلص للتأنيث، وهذا يعني أن النظر في هذا الي المعني كقوله تعالى: ﴿.... وينشيء السحاب الثقال﴾[7]، وقوله تعالي أيضاً: ﴿حتي اذا أقلت سحابا ثقالا...﴾[8].

١١- سنبل:

ويحسن بنا أن نقف على «سنبلة» في لغة التنزيل العزيز فنجدها في قوله تعالى ﴿إني أرى

(١) ٢١ سورة الروم.
(٢) ٢٣٤ سورة البقرة.
(٣) ٥٠ سورة الأحزاب.
(٤) ٤٤ سورة الطور.
(٥) ١٦٤ سورة البقرة.
(٦) ٤٨ سورة الروم.
(٧) ١٢ سورة الرعد.
(٨) ٥٧ سورة الأعراف.

سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر....﴾[1].

أقول: وجمع المؤنث في «سنبلات» وغيرها هو جمع أدني العدد (أي القلة)، وهو يفيد هذه الدلالة القليلة العدد في كل اسم يجمع هذا الجمع إلا إذا كان الاسم لا يجمع إلا بالألف والتاء نحو النبات و«الهبات» ونحوهما فهو في هذه الحالة يدل على الكثرة ولا يخلص إلى القلة الا بقرينة دالة فيقال مثلاً سبع بنات، وعدة هبات. فإذا قلنا سبع سنبلات فهي جمع قلة من غير دلالة العدد عليه، ومثله «بقرات» التي وردت في الآية فالكثير فيهما سنابل وبقر.

وقد يعترض معترض فيقول: وردت «سنابل» في القرآن وهي مفيدة القلة في قوله تعالى: ﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل....﴾[2]، والجواب عن هذا ان «سنابل» تفيد الكثرة، وانما أفادت القلة بقرينة العدد «سبع» وليس في هذا ما يخرم القاعدة، وهذا باب من فصاحة العربية، وجميل بي أن اقول مقالة أبي الفتح عثمان بن جني: ذلك «من شجاعة العربية».

١٢- سوء:

ولنرجع إلى مراعاة المعنى في بناء الجملة القديمة فنجد «السيئات» في قوله تعالى: ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني﴾[3] وفي هذه الآية جاء الفعل «ذهب» وفاعله «السيئات» جمع مؤنث حقيقي التأنيث. ولو كان بين الفعل والفاعل فاصل من ضمير لقلت قام الضمير حاجزا فأبعد التأنيث كقوله تعالي: ﴿فأصابهم سيئات ما عملوا﴾[4].

ولنقف قليلا علي «سوأة» وهي ما يجب أن يستر من عورة الانسان كما في قوله تعالى: ﴿... كيف يواري سوأة أخيه﴾[5]، وهذه تجمع علي «سوءات» جمعا مؤنثا، كقوله تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سواءتكم﴾[6]. ولكن هذه الكلمة قد وردت في آية في

(١) ٤٣ سورة يوسف.
(٢) ٢٦١ سورة البقرة.
(٣) ١٠ سورة هود.
(٤) ٣٤ سورة النحل.
(٥) ٣١ سورة المائدة.
(٦) ٢٦ سورة الأعراف.

لكلام على آدم وحواء فجمعت ولم يدل على التثنية وهي المقصودة في الآية إلا بالضمير الذي عاد عليهما فقال تعالي: ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما﴾[1]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فاكلا منها فبدت لهما سوءاتهما﴾[2].

أقول: وهذا باب من العربية يراد به إحسان الأداء، وأن الكلمة «سوأة» لو ثُنيَت فلحقهما ضمير التثنية لم تكن حسنة مستملحة، ولفقدت شيئاً من طلاوة درجت لغة التنزيل علي أن يكون فيها شيء كثير من الكلم العبقري الجميل.

أقول: وعلي هذا جاء قوله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صَغَت قلُوبكما﴾[3]، فقد جُمِعَ «القلب» ولم يُثنَ تحقيقا لهذا الغرض من احسان الكلام وبنائه بناء فاضلا ممتعا مباركا.

١٣ـ شرذم:

قلت: إن «إحسان الكلام» وتجويده مما درجت عليه لغة التنزيل، ومن هنا وصفت «شرذمة» وهي الفئة القليلة العدد بصفة جمعت جمع تصحيح مذكر في قوله جل وعز: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾[4]، ولا أقتصر في النظر إلى هذه الآية بقولي: «روعي فيها المعني» بل أضيف أن الوصف أدى غرضا ينبغى أن يكون وصولا إلى «إحسان الأداء» فالسورة ينتظمها بناء يقوم على فواصل الآيات المنتهية بالنون، ومجيء «قليلون» يفي بهذا، ولا يفي بما قلناه لو كانت الفاصلة «شرذمة قليلة»، ومعاذ الله أن يأتي في كلمة شيء لا يفي بالكمال والجلال.

١٤ـ صحف:

وقد وردت «الصحف» في جملة آيات روعي فيها النظر إلى الشكل وهي أنها جمع مؤنث فكانت «الصحف» موصوفة بالأولى، ومكرّمة، ومطهرة، ومنشَرة. وليس لي أن أذكر قوله تعالى: ﴿واذا الصحف نشرت﴾[5]، فالتأنيث في الفعل واجب.

---

(١) ٢٠ سورة الأعراف.
(٢) ١٢١ سورة طه.
(٣) سورة التحريم.
(٤) ٥٤ سورة الشعراء.
(٥) ١٠ سورة التكوير.

١٥ـ صيف:

وجاء «الضيف» في بعض الآيات ويراد به الجمع كما جاء في آيات أخرى لا يتجه فيه شيء إلى ارادة الـمفرد، فقد يكون ولا يكون. قال تعالى: ﴿هل آتاك حديث ضيف ابراهيم الـمكرمين﴾[١]، وقوله تعالي أيضاً: ﴿قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾[٢]. ودلالة الجمع في هاتين الآيتين واضحة مؤيدة. غير أننا نجد قوله تعالى: ﴿وقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾[٣]، وقوله تعالى ﴿فاتقوا الله ولا تُخزونِ في ضَيفي﴾[٤]، ولسنا على يقين من دلالة «ضيف» في هاتين الآيتين.

١٦ـ طـوف:

الطائف جماعة، وهي مفردة مؤنثة باحتساب اللفظ، جمع مؤنث باحتساب الـمعنى ويتبين هذا في قوله تعالى: ﴿ودَت طائفة من أهل الكتاب لو يُضلونكم﴾[٥]، فالفعل «ودت» وفيه التاء، والفاعل «طائفة» وهو مؤنث لفظه الـمفرد، وهو جمع في الـمعنى فجاء الفعل اللاحق «يضلونكم» مسندا إلى جماعة الـمذكر متصلا بضمير الجمع الـمذكر. على أننا نجد هذا الاسم مسبوقا بالفعل «بيَت» على أنه فاعل وهو مفرد مذكر وذلك في قوله تعالى: ﴿فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول﴾[٦].

وقد وصفت «الطائفة» بصفة مفردة مؤنثة مراعاة للفظ فجاء قوله تعالى: ﴿ولتأت طائفة أخري لم يصلوا فليصلّوا معك﴾[٧]، ولكن الفعل بعد الفاعل نظر إلى الـمعنى فلحقته واو الجمع الـمذكر.

ولنقف على مثنى طائفة وكيف جاء في لغة التنزيل العزيز فنجد قوله تعالى: ﴿إذ هَمَت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليَهما﴾[٨]، وقد جاء الفعل بعد الـمثنى يشير إلى أن الاسم

(١) ٢٤ سورة الذاريات.
(٢) ٦٨ سورة الحجر.
(٣) ٣٧ سورة القمر.
(٤) ٧٨ سورة هود.
(٥) ٦٩ سورة آل عمران.
(٦) ٨١ سورة النساء.
(٧) ١٠٢ سورة النساء.
(٨) ١٢٢ سورة آل عمران.

لـمثنى بدلالة ألف التثنية فيه «تفشلا»، وفي هذا نظر إلى اللفظ أو الشكل وهو التثنية. غير أننا نجد في آية أخري هذا الـمثني وقد لحقه فعل أسند إلى جماعة الذكور كما في قوله تعالى: ﴿وان طائفتان من الـمؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾[1]، وفي هذا نظر إلى الـمعني وهو الجمع،و على أنك تجد في آخر هذه الآية عوداً إلى اللفظ أو الشكل في ضمير التثنية الـمتصل في «بينهما» ومجموع هذا الانتقال بين اللفظ والـمعني من خصائص هذه العربية القديمة.

١٧ـ عنـق:

وردت «الأعناق» في آية قد وصفت بصفة معروفة إلى «الخبر» وهي جمع سلامة مذكر وذلك في قوله تعالى: ﴿فضلّت أعناقهم لها خاضعين﴾[2]، وأنت تجعل «خاضعين» خبرا لـ «ظل» اذا كنت في حيّز الدرس النحوي وليس شيء آخر. غير أنك تتوقف قليلا وأنت تنظر إلى الآية في حدود ما يوصف به العاقل وغير العاقل، وذلك أن «خاضعين» وهي جمع سالم مذكر لا يمكن أن توصف بها «أعناق» وهو غير عاقل، ولكنك تجد في التأويل في فنون القول البلاغي سعة في تجويز ذلك بل قبوله واستحسانه لوروده في هذه الديباجة المشرقة من كلام الله.

١٨ـ فلـك:

وجاءت «الفلك» في آيات كثيرة، وهي في شيء منها مؤنث مفرد فاعل لفعل يسبقها أو أنها مسند إليه بتلوها فعل يشير إلى تأنيثها وذلك في قوله تعالى: ﴿ولتجري الفلك بأمره﴾[3]، وفي قوله تعالى: ﴿والفلك التي تجري بما ينفع الناس﴾[4].

وجاءت في آيات أخرى متلوة بما يفيد أنها جمع مؤنث كما في قوله تعالى: ﴿حتي إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾[5]، فالفعل «جرين» بنون النسوة يشير إلى أن الفلك جمع مؤنث. ومثل هذا ما جاء في قوله تعالى: ﴿وتري الفلك مواخر فيه﴾ فوصف الفلك بـ

(١) ٩ سورة الحجرات.
(٢) ٤ سورة الشعراء.
(٣) ٤٦ سورة مريم.
(٤) ١٦٤ سورة البقرة.
(٥) ٢٢ سورة يونس.

«مواخر» يشير إلى أن الـموصوف بها جمع مؤنث، ونقرأ كل هذا ثم نقرأ قوله تعالى: ﴿فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون﴾[1]، فنجد «الفلك» قد وصف بـ «المشحون» وهو مفرد مذكر.

١٩ـ كـل:

جاءت كلمة «كل» في أكثر من ثلاث مئة آية، وكلها يشير إلى أن «كل» تعنى «أي» وهي مفرد، كقوله تعالي: ﴿إن الله علي كل شيء قدير﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾[4].

ولم نجد في مجموع هذه الآيات إلا قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل﴾[5]. ففي هذه الآية نلمح في «كل» دلالة الجمع، وقد تحتمل دلالة الإفراد.

غير أن «كل» في غير القرآن قد تأتي مفيدة للجمع، فيقال مثلاً: «كل الأعضاء حاضرون» والـمعنى جميعهم، وفي هذا نظر إلى الـمعني بدلالة «حاضرون». ولنا أن نقول: كل الأعضاء حاضر، والـمعنى هو نفسه، ولكن النظر إلى اللفظ، فاللفظ مفرد مذكر، وهذا نظير «من» الـموصولة. يقال مثلاً رأيت من كان في الدار، كما يقال: رأيت من كانوا في الدار. غير أن مراعاة اللفظ واعتبار «كل» و «من» مفردا مذكرا أكثر وأفصح.

ومثل هذا يقال في «كل» و «كلتا»، يقال: كلا الرجلين فاضل، كما يقال: كلاهما فاضلان والأول أكثر وأفصح.

٢٠ـ نحـل:

و «النحل» من أسماء الجمع والواحد نحلة، وقد روعي فيها التأنيث والإفراد كما في قوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا﴾[6]،

---

(١) ١١٩ سورة الشعراء.
(٢) ٢٠ سورة البقرة.
(٣) ٣٥ سورة الأنبياء.
(٤) ٨٤ سورة الإسراء.
(٥) ٩٣ سورة آل عمران.
(٦) ٦٨ سورة النحل.

وفي هذا نظر إلى اللفظ. وقد نقف أمام هذه المسألة اللغوية الخاصة بالنحل فندرك أسلوب القرآن في مراعاتها، ثم نقف علي نظيرها وهو «النمل» فنقرأ قوله تعالى: ﴿قالت نملة أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾[1]. فنجد «النمل» جمع مذكر وقد يكون هذا بسبب ما أسند اليه من صفات العاقلين ولوازمهم وهو «القول» الذي ورد في «قالت نملة» على أن هذا التأويل لا يدخل من النظام النحوي لبناء الجملة.

٢١- نخل:

ورد «النخل» في إحدى عشرة آية وهو مفرد في بعضها كقوله تعالى: ﴿فتري القوم فيها صرعي كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾[2]، وقد يدل على الإفراد والتأنيث ما ولي «النخل» من ضمير مفرد مؤنث كما في قوله تعالى: ﴿وزروع ونخل طلعها هضيم﴾[3].

وقد يأتي «النخل» جمعا مؤنثا بدلالة الوصف المؤنث المجموع نحو قوله تعالي: ﴿والنخل باسقات لها طلع نضيد﴾[4]، والضمير العائد عليها مفردا مؤنثا.

وكما جاءت النخل مفردة مؤنثة كما مثلنا وكقوله تعالى أيضاً: ﴿والنخل ذات الأكمام﴾[5]، جاءت أيضاً مفردا مذكرا كما في قوله تعالى: ﴿تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾[6].

تعليق:

أقول: لقد رأينا في اسم الجمع الذي جاء في لغة التنزيل مواد تاريخية ذات قيمة كبيرة في فهم خصائص عربية التنزيل العزيز، وتأتي قيمتها مما تفردت به من الظواهر اللغوية المختلفة، وهذا كله يشير إلى شيء من تاريخ هذه اللغة الشريفة، وأنت تدرك هذا حيث تستقري الآيات التي جاء فيها النحل والنخل والنمل والفلك وغيرها.

---

(١) ١٨ سورة النحل.
(٢) ٧ سورة الحاقة.
(٣) ١٤٨ سورة الشعراء.
(٤) ١٠ سورة ق.
(٥) ١١ سورة الرحمن.
(٦) ٢٠ سورة القمر.

كلمة أخيرة:

لعل لغة القرآن بما تقدم من فوائد في هذه المسألة اللغوية التي أسميتها «نظرية الشكل والمعنى» التي يدخل فيها المطابقة وعدمها، أفضل المصادر لاستجلاء تاريخ العربية، وأن هذه الظواهر المتباينة مادة مثقلة بالأصالة الفريدة.

ومن المؤسف أن يقف منها الدارسون وقفة المكره المتعب الذي ينظر اليها فيخطئه العلم فيتأول ويتعسف ويتكلف فيأتي بالغريب البعيد عن العلم ليكون ذلك شيئاً يعصم القواعد التي أصلها النحاة واللغويون ولا يهدمها. وكأنهم خشوا أن يقولوا إن لغة القرآن في مسائل عدة غير ما كتبوا وقعدوا فراحوا يتعسفون سبلا شاقة عسيرة ليوصلوا النص القرآني إلى ما قالوه، ألا ترى أنهم ضعفوا شيئاً من القراءات لمخالفتها أقيستهم فقال بعضهم: قراءة «نافع» ليس بشيء في مسألة «معائش» التي لا تهمز في زعمهم[1].

أقول: لو فطن أولئك الأوائل إلى القيمة التاريخية وموضع النص القرآني فيه لأفادوا كثيرا ولانتهوا إلى أن اللغة الشريفة غير ما قعدوا ودققوا.

والله أسأل أن ينفع بما حررت أنه نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) اقرأ تفسير الآية ١٠ من سورة الأعراف وهي ﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ في «الكشاف» للزمخشري وفي غيره من كتب التفسير.